الفصل الرابع

كيف يكون التغيير؟

كيف يكون التغيير ؟

أشرنا فى فصل سابق إلى أن التغيير الأرشد والأبقى هو تغيير ما بالنفس ـ كما تحدث القرآن فى قوله: ﴿**حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

وتغيير ما بالنفس سبيله الكلمة وليس با «**الانقلابات**» أو «**الثورات**» لأن هاتين الوسيلتين لاتصلحان إلا فى مواجهة غاصب فرض سلطانه على الناس بالقوة، ومن ثم فلا يمكن طرده أو تغييره إلا بالقوة.

لكن ...

لكن القوة والعنف لايصلحان أبدًا فى تغيير ما بالنفوس، بل قد تكونان سبيلا إلى العناد والإصرار على المزيد من الانحراف ومن الإفساد فى الأرض.

وقد أثبتت التغييرات «الثورية» ـ فى عالمنا المعاصر ـ أنها فى بلدان كثيرة أضرت أكثر مما نفعت، **واستوجبت تغيير «التغيير»** الذى قامت به، ومن ثم فلا يصلح للتغيير الرشيد الآمن والدائم إلا ما أمر به القرآن الكريم ودعا إليه، وهو التغيير بالكلمة التى لخص

(١) الأنفال، من الآية: ٥٣، والرعد، من الآية: ١١.

القرآن الكريم صفتها وما ينبغى أن تكون عليه فى قوله: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١).

* * *

ولأن تغيير ما بالنفوس ـ والذى هو منهج القرآن ـ هو الأشق والأصعب من كل تغيير، وخاصة عند ما تبدأ ممارسته فى مجتمع يكون الفساد قد استحكم فيه وضرب فى أرضه بجذوره حتى خرَّب الضمائر، وثَبَّطَ العزائم، فهنا يكون الأمر بحاجة إلى مثل عزائم الأنبياء وجهودهم.

ولأنه لا نبوّة بعد محمد ﷺ فيصبح التغيير بالكلمة منوطا بالعلماء والدعاة والمفكرين، وكل حملة الأقلام المخلصة النقية من البقية الصالحة من الشباب الذين كتب الله لهم السلامة مما يكون قد ران على المجتمع ـ الذى عاشوا فيه ـ من الفساد.

* * *

وحتى لانعالج فسادًا بفساد، ولانرأب صدعًا لنشق صدعًا آخر، فلا يصلح فى هذه المهمة ـ مهمة تغيير الواقع الفاسد ـ أىٌّ من الباحثين عن المجد أو الشهرة، أو الذين يبيعون دينهم بدنياهم. وإنما يصلح له أولئك الأصفياء الأنقياء ممن قال الحق سبحانه فى أمثالهم:

(١) سورة النحل، من الآية: ١٢٥.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

لتكن مهمة معالجة الأوضاع الفاسدة والانتقال بالمجتمع مما هو فيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه.. لتكن مهمة رجال أصفياء أنقياء يقومون بها ابتغاء وجه الحق والعدل، لايرجون لأنفسهم شيئا من زينة الدنيا فى مالها أو جاهها أو سلطانها، وإنما ينذرون أنفسهم لإعلاء كلمة الحق وإن كانت سبيلهم إليها هى الشهادة.

ويملكون القدرة على الجهر بالحق فى وجه أى سلطان جائر.

* * *

وإذا كنت أركز على أن يكون القائمون بعمليات التغيير بهذا المستوى الرفيع من الأمانة والصدق والأهلية **فمن الضرورى كذلك أن يمتلكوا الحكمة والقدرة على التعامل مع الأوضاع القائمة (الفاسدة) بقدر من الذكاء السياسى والدَّعَوِىِّ الذى يعتمد الوصول إلى دخائل النفوس، وإلى مواطن الإقناع والقبول فى العقول.**

وهنا ـ ومن خلال ملاحظة ماحدث فى مسيرة الدعوة الإسلامية، منذ وقف الرسول ﷺ على جبل «أبى قبيس» بمكة المكرمة يقول لأهلها: **« إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد »** إلى أن أقيمت الدولة الإسلامية فى المدينة وانفسح الطريق أمام «الإسلام» ليأخذ مكانه فى كل أنحاء العالم ـ من خلال هذه الملاحظة نرصد مايلى:

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣.

أولا : ضرورة إنكار الواقع الفاسد ومواجهة رموزه :

لقد شاع فى عصرنا ـ كما كان فى الماضى وبداية الدعوة ـ وصف إنكار الواقع الفاسد ومواجهة رموزه بمصطلح «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**» باعتباره أحد أسباب وصف أمة الإسلام بالخيرية فى الآية الكريمة ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(١).

وأيضا باعتباره واجبا «كفائيًّا» أمرنا به الحق سبحانه فى مثل قوله: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٢).

كما أمرنا به الرسول ﷺ فى الحديث المشهور: « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** ».

وقد تعددت الاجتهادات فى تحديد من عليه أو من له حق القيام بكل مرحلة من مراحل تنفيذ هذا الأمر بالمعروف بين «**اليد**» و «**اللسان**» ومجرد الإنكار القلبى.

والجمهور على أن الإنكار باليد من صلاحيات ولىّ الأمر الذى

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠٤.

له من السلطة والغلبة ما يحمى المجتمع من الفتن والصراع الداخلى وأن الإنكار باللسان من صلاحيات العلماء. أما الإنكار بالقلب فهو موقف عامة الناس.

والإنكار القلبى ليس حالة سلبية أو بتعبير المحدثين انهزامية بلهاء، **وإنما** هو إعلان المنكر بقلبه عن موقف المقاطع والمفارق لحالة مرتكب المنكر، وهذا يعنى أن يصبح المنكر وفاعله معزولا من جماعة المسلمين، فيصبح وكأنه طريد قومه وجماعته، ويحرك الإحساس بذلك فى نفسه مشاعر الندم؛ فينفتح أمامه طريق «التوبة» الذى هو نفسه طريق العودة إلى حوزة الجماعة والأمة وإلى طريقها المستقيم.

* * *

نماذج الإنكار ومواجهة المفسدين

١ - أبو الأنبياء وأبوه وقومه:

وأحد النماذج الرشيدة فى محاولة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بالأسلوب الذى يتجه إلى «النفوس» أملا فى تغييرها - هو «أبو الأنبياء إبراهيم» عليه السلام فيما حكاه عنه القرآن:

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1].

فواضح أنه ـ عليه السلام ـ مع إنكاره على أبيه أن يعبد الشيطان، ولكنه كان متلطفا فى الخطاب معربا لأبيه عن خوفه عليه مما سيتعرض له من العذاب إذا استمر فى إعراضه.

لكن «الأب» كان قد استبد به شيطانه ـ ولم يشأ الله هدايته ـ كان جافى الرد فقال لابنه ـ أبى الأنبياء ـ كما حكاه القرآن:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[2].

وهنا يظهر الحرص الشديد الذى يصنعه الإيمان بالهدف ـ هدف تغيير ما بنفس المدعوِّين إلى الحق ـ يظهر فى تعليق أبى الأنبياء عليه السلام على الردّ الجافى لأبيه، ليس بالغضب، والمفاصلة، وإنما باستبقاء الباب مفتوحا أمام الأمل فى الهداية وتغيير ما بنفس أبيه فيقول ـ كما حكته الآية ـ:

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[3] ثم يعلن عن موقفه الذى يمثل المرتبة الثالثة من مراتب الإنكار وهى

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٤١ ـ ٤٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤٧.

الإنكار القلبى الذى يتمثل فى إعلان اعتزاله لأبيه وقومه فيما حكته الآية: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[1].

* * *

وفى موقف آخر من قومه يمارس - عليه السلام - تغيير المنكر بالحوار مع ملك بلاده فيما حكاه القرآن، قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَاْ أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

وواضح هنا - من خلال حِوَارَىْ إبراهيم عليه السلام مع أبيه ومع الملك - ما يجب أن يتسلح به من يحاولون تغيير الواقع الفاسد فى مجتمعاتهم من قوة الحجة وبساطة الدليل ووضوحه، مع الإخلاص والحرص على الإقناع والهداية.

* * *

على أن أبا الأنبياء - عليه السلام - فى موقف آخر مارس محاولة «التغيير» باليد عندما توجه إلى تحطيم الأصنام على ما حكته

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٨.
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨.

الآيات [٥٠ ـ ٧٣] فى سورة الأنبياء والتى ذكرت حواره مع قومه حول عبادة الأصنام، وإنكاره عليهم ـ مخاطبا عقولهم ـ كيف يعبدون ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنهم من الله شيئا، ثم إقدامه بعد ذلك على تحطيم هذه الآلهة المزعومة، ثم محاكمة القوم له، واعتزامهم إحراقه بالنار، ورعاية الله له ونجاته مما كادوا حين تمت المعجزة وأُمرت النار ألاَّ تحرقه، وإنما كما جاء فى الآية ﴿ **قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ** ﴾(١).

* * *

ونلاحظ هنا واحدة من سنن القرآن وهى «**إبطال النواميس**» **وإيقاف عملها؛ حيث توقفت النار عن الإحراق وتحولت إلى برد وسلام**. وإيقاف السّنّة هنا هو استمرار لإعمالها فى ضرورة نصر الله ـ تبارك وتعالى ـ لأنبيائه وأوليائه ولدعاة الخير والحق والإصلاح، وهو ما أشارت إليه الآيات «السّنن» الحاكمة بانتصار جنود الله وأوليائه فى قوله ـ سبحانه ـ:

﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾(٢). ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٣).

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٦٩.
(٢) سورة محمد ، من الآية : ٧.
(٣) سورة الروم ، من الآية : ٤٧.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾[1].

* * *

٢- نموذج « الفتية المؤمنة » (أهل الكهف) :

وإذا كان أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ يعبر فى رفضه للباطل وعمله على تغيير حال المجتمع من الضلالة إلى الهدى فهو تعبير عن النموذج النبوى: نموذج رسل الله وأنبيائه الذين يؤيدهم الله بمعجزاته.

إذا كان هذا أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن ثمة نماذج أخرى ليسوا رسلاً ولا أنبياء لكنهم كانوا ذوى مواقف وأدوار فى رفض الباطل ومواجهة المبطلين، وإعلان الانتصار والمؤازرة لكل الرسل ولكل المصلحين وكل دعوات الحق.

* * *

من هؤلاء كانت هذه الفتية المؤمنة، الذين عرفوا تاريخيا باسم «أهل الكهف» الذين عرض القرآن مجمل حديثهم فى **سورة «الكهف»**: [**بين الآيات: ١٣ ـ ١٦**].

ويحمل حديث القرآن عنهم مجموعة من القسمات والصفات

(١) سورة يوسف ، من الآية : ١١٠.

التى ينبغى أن يكون عليها دعاة «التغيير» حتى يبسط الحق عليهم ظله ويمدّهم بمدد من عنده.

وكانت صفة «**الإيمان**» أولى ما وصفهم القرآن به : ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾[1] والإيمان دائما هو الركيزة والأساس الذى لابد من توفره لمن يتصدّون لعمليات التغيير، وليس المراد هنا مجرد «إيمان» يكون ثمرة حماس لأداء عمل ما. ولكنه كما قال عنهم «آمنوا بربهم»؛ لأن للإيمان بالله صنائع وتأثيرات تمنح المؤمن ثقة عظمى بالنفس، وتسند ظهره إلى ركن شديد يأوى إليه فلا يهن ولايحزن، وقبل هذا ومعه يكون محروسًا بعون الله يهديه إلى الطريق وييسّر له العسير، وهو ما يشير إليه قوله فى الآية: ﴿ **وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾[2].

* * *

وكانت «القسمة» أو الصفة الثانية لهذا النموذج هى **الوعى الواضح بالقضية مناط التغيير التى يتصدون لها، وهى إعلان التوحيد والدعوة إليه، ورفض الشرك واعتباره ظلما وشططا وافتراء كاذبا على الله**، كما قررته الآيات.

وكما ذكرنا فى الفصل الثانى فإن قسمة «**التوحيد**» هى السقف الذى لايصح تجاوزه فى تصوّرنا للمجتمع الأمثل ، كما يجب أن يكون حيث يبقى الناس جميعا تحت هذا السقف لايخرجون عنه.

(١) سورة الكهف ، من الآية : ١٣.
(٢) سورة الكهف ، من الآيتين : ١٣ ، ١٤.

وعليه فإن جعل قضية «**التوحيد**» محور دعوة أهل الكهف ومطالبتهم بها دليل على ما حباهم به ربهم من الهدى وزيادة. ودليل أيضا على أنها «**القضية**» **المحورية التى يقوم عليها كل ماسواها من القضايا**، ولا يستقيم بدونها أى تغيير.

* * *

وفى مسلك «أهل الكهف» ـ أو «الفتية المؤمنة» ـ يحدثنا القرآن عن موقف آخر من مراتب إنكار المنكر والأمر بالمعروف، وهو موقف «**الاعتزال**» ـ الذى هو فى الحديث المشهور ـ مرتبة الإنكار بالقلب والذى كان تعليقنا عليه ـ فيما سبق ـ أن القصد منه هو المحافظة على أهل الخير والحق وحمايتهم من عدوى التأثر بالمبطلين واستبقاء حماسهم للحق متوقدًا لا يفتر؛ كى يواصلوا الدعوة إلى التغيير.

* * *

والنموذجان اللذان عرضنا لهما ـ نموذج أبى الأنبياء إبراهيم ونموذج أهل الكهف ـ يتفقان فى إنكار الواقع الفاسد ومحاولة تغييره، لكنهما يختلفان فى الأسلوب، فأحدهما أنكر بلسانه ويده، والآخر أنكر بلسانه ثم اعتزل، أى مارس الإنكار بالقلب، **ولكلٍّ ظروفه بما يفتح أمام «التغيير» أكثر من طريق.**

٣- شهيد الحق :

والنموذج الثالث لمن يجاهرون بكلمة الحق فى وجه الفساد والسلطان الجائر ويكون لهم إسهامهم فى عمليات التغيير وحفز وتشجيع المستضعفين فى الأرض على التحرك، قد عرض له القرآن الكريم فى صورتين.

الأولى : الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى؛ ليعلن انتصاره لرسل الله ويطلب إلى قومه اتباعهم، ويمضى فى مجاهدة أهل قريته حتى هموا به وقتلوه ـ على ما ذكرته الآيات فى سورة «يسّ » .

وقد ضربه القرآن مثلا فى مجاهدته أهل القرية بانتصاره لرسل الله ومطالبة قومه بأن يتبعوهم فيما دعوهم إليه بعد الذى رآه من إعراض قومه، وإيذائهم للرسل، كما حكته الآيات التى يغنى تسجيلها عن كل تعليق:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[1].

* * *

الثانية : مؤمن آل فرعون.

أخذ مؤمن آل فرعون يجاهر برفضه للعنفوان «الفرعونى» الذى أعلنه «فرعون مصر» بتحديه الصارخ ـ **ليس فقط لموسى عليه السلام ـ بل وللإله نفسه الذى دعاه موسى إلى عبادته** كما حكته الآيات الكريمة التى تصف طغيان فرعون ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾[2].

أما فرعون نفسه وما أعلنه من الوعيد والتحدى لنبى الله موسى وللإله الذى دُعى إلى الإيمان به فقد حكته الآية الكريمة:

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾[3].

وإذ يقول فرعون ذلك لايملك موسى إلا أن يلجأ إلى حمى ربّه

(١) سورة يس ، الآيات : ٢٠ ـ ٢٧.
(٢) سورة غافر ، الآيات : ٢٣ ـ ٢٥.
(٣) سورة غافر ، الآية : ٢٦.

ورب الناس؛ ليجد عنده النجاة والأمن، فيقول كما حكته الآية: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾(١).

* * *

ودائمًا ـ وحين يبلغ طغيان الطغاة مثل هذا الحد من البطش والتحدّى ـ تتحرك جوانب الخير فى الفطرة الإنسانية التى تُخرج من أعماق الوضع المأساوى لدعاة الحق من يعلن انتصاره لهم، ورفضه لما يكون عليه المفسدون فى الأرض مجاهراً بمعارضته إياهم، محذراً لهم من بأس الله وغضبه الذى أصاب أمثالهم من الطغاة السابقين من أمثال قوم «نوح» و «عاد» و «ثمود».

* * *

ونلحظ فى انتصار ،هذا النموذج لموسى أنه لايبادل فرعون وقومه عنفا بعنف، ولكنه يمارس معهم حواراً عقليا ومنطقيا هادئًا، حين يقول كما حكته الآية:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾(٢).

* * *

(١) سورة غافر ، الآية : ٢٧.

(٢) سورة غافر ، الآية : ٢٨.

ثم مضى مؤمن آل فرعون الذى يمثل ـ فى موقفه ومواقف أمثاله ـ فطرة الخير والعدل المستكنة فى وجدان الإنسان والتى تسمّى فى اللغة المعاصرة بالرأى العام.

مضى «مؤمن آل فرعون» بالأسلوب وبالمنطق العقلى فأخذ يحذرهم وكأنه رفيق بهم خائف على ما سيتعرضون له ـ فى الدنيا والآخرة ـ إذا استمروا فى عنادهم وطغيانهم غير متعظين ولامعتبرين بما كان منهم مع نبىٍّ الله يوسف الذى ضاقوا به وظلّوا يترقبون موته؛ لأنهم كانوا مرتابين فيما حدثهم به، فلما مات زعموا أنه لن يأتيهم من الله رسول من بعده. ولكن هاهو موسى يأتيكم فهلاّ تدبرتم أمركم وصححتم موقفكم فصدقتم وآمنتم؟!

وكما هو واضح أن العقل والمنطق كانا عماد هذا الحوار أو هذه المناشدة التى ينبغى أن تكون تحت نظر الدعاة ونصب أعينهم وتكون ـ قبل هذا ـ أمام المشتغلين بعمليات تغيير المجتمع، لما هو مقرر فى دراسات علوم النفس والاجتماع من **أن الخطاب الهادئ المتشح بمنطق العقل أحسن وقعًا وأعظم تأثيراً وأكثر قبولا فى النفوس من الخطاب العنيف الذى يكون رده الفورى هو العناد والرفض**، وهو ما قرّره القرآن الكريم، وأمر به الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ وأخاه هارون أن يخاطبا به «فرعون» وذلك فى قوله:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[1].

ثانياً : تيقظ «الرأى العام» وتأييده للتغيير :

وحين تكثر فى المجتمع نماذج المجاهرة بالحق والقدرة على النطق بكلمة الإصلاح فى وجه الطغاة والمفسدين تكون أرض التغيير قد باتت صالحة لإنبات وتنمية مانسمية فى عصرنا «**الرأى العام**» الذى يظاهر التغيير ويعين عليه، فيتنامى فى الناس الإحساس بنقد الانحراف والفساد والظلم، ويتنامى فيهم كذلك رفض الواقع السّئ الذى يعيشونه، ومن ثم يكون ترحيبهم وتأييدهم الكامل للتغيير.

* * *

وإيقاظ وتكوين وتعبئة الرأى العام **هى ملخّص وخلاصة عملية التغيير منذ تبدأ إلى أن تبلغ غاياتها**. لكن تطبيقها وإنزال مراحلها على أرض الواقع أمر ليس بالهين، ولكنه شاق ومحفوف بالكثير من المخاطر، ويحتاج إلى مثل عزائم الأنبياء.

ومع هذا فأداؤه فريضة، ومؤدوه هم الذين قال الله فيهم :

(١) سورة طه ، الآيات : : ٤٣ ـ ٤٧.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1] وإليكم بعض سماتهم:

أولا : أنهم أهل الإيمان واليقين الذى لا يرقى إليه أى اهتزاز فى أن الحق سبحانه ناصرهم ومعينهم ومسدّد خطاهم ماداموا على طريقه.

ثانيا : أنهم أصحاب البصائر النفاذة إلى جواهر الأشخاص والأشياء بحيث تحسن معرفة الواقع وتقييمه وتحديد مكانه من الصلاح والفساد.

ثالثا : أنهم الواقفون دائما على أرض **«الواقع»** يعايشونه ويُنعمون النظر فى ظواهره ودخائله، بحيث لايحول غبش الرؤية بينهم وبين إدراك الحقائق.

رابعا : أنهم أهل القدرة على حسن عرض ما فى الواقع من مفاسد ومخاطر على الناس؛ حتى يستثيروا اهتمامهم ويحفزوا هممهم على عمل ما يستطيعون عمله لتصحيح الأوضاع وتغييرها.

خامسا : **لأهل الدعوة فى هذا الميدان دور كبير وخطير** بما يملكون من أسباب التوجيه وامتلاك نواصى البيان المؤسس على معطيات القرآن والسنة النبوية الشريفة بما لهما من تأثير مسبق ومؤكد

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣.

على الوجدان الشعبى وخاصة فى بلادنا الإسلامية التى يستكن الدين فى وجدانها مستجيبا لأقرب إشارة.

* * *

بقيت كلمة..

فربما يقال : إن عملية التغيير الاجتماعى التى قام بها الإسلام فى المجتمع الجاهلى حدثت فى زمان ومكان وواقع شديد الاختلاف عن واقعنا وعن أيامنا.. فهل ستظل المنهجية التى استخدمت فى التغيير صالحة للتأثير فى عالم مختلف وزمان وواقع مختلف؟؟

وأقول :

نعم. ونعم.. لأن المجتمع الذى غيّرته المنهجية التى عرضناها فى هذه الدراسة **ليس هو الواقع والزمن والأشخاص والأحداث** التى كانت قائمة بحيث يظن أن أشخاص عصرنا وزماننا وأحداث أيامنا تخالف ماكانوا عليه، ومن ثم فما صلح لتغييرهم لن يصلح لتغييرنا.

كلا. بل السابقون ـ **فى زمن الجاهلية ـ لم يكونوا مجرد أشخاص، بل كانوا نماذج للمجتمع الذى ظهر فيه ـ أو كان فيه ـ الفساد واقتضت الحكمة تغييره** .

وهذه النماذج ليست **مختصة بزمان أو مكان بعينه، ولكنها قابلة للتكرار فى أى عصر ولو بصور مغايرة. وعليه تكون المنهجية التى استخدمت لتغييرهم ماتزال صالحة للاستخدام عند تغيير غيرهم.**

وكمثال :

* فإن الاستعلاء بالباطل الذى مثله الجبابرة «عاد» و «ثمود» مايزال موجودا وربما بشكل أشد وأخطر مما كان عليه السابقون.

* وعبادة غير الله التى كانت عقيدة المشركين توجد لها نماذج فى عصرنا، فالأقدمون كانوا يعبدون «الأصنام» أما أهل أيامنا فقد نسوا الله وألّهوا «العلم»، وأشركوا مع الله بعض عباده.

* والاغترار بسلطان «المال» الذى كان عليه «قارون» له فى زماننا «قوارين» لاتعد ولاتحصى، وتمارس نفس الفكر والمنطق «القارونى» الذى حكاه عنه القرآن فى قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾[1].

* والانحراف عن سواء الفطرة الذى مثله «قوم لوط» مايزال متكرراً وفى أكثر دول العالم المعاصر سلطانا وهيمنة، وأصر رئيس إحداها على أن يعود الشواذ إلى الخدمة فى الجيش.

* والمظاهرون للسلطان الجائر الذين مثلهم «هامان» فى الماضى موجودون وبكثرة كاثرة، بل إن هؤلاء «الهامانات» فى عصرنا ليسوا فقط من يعينون السلطان عند فساده، بل إنهم مفسدوه، وهم الذين يزينون له المنكر حتى يستمر عليه.

* * *

(١) سورة القصص ، من الآية : ٧٨.

هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ ليست وقفا على المجتمع «الجاهلى» قبل البعثة، ولكنها إفراز طبيعى لكل مجتمع مماثل يتفلَّت فيه الإنسان من ضوابط الأخلاقيات والقيم، ومن ثم فهى قابلة للتكرار عبر الزمان والمكان وإن اختلفت صورها وتغيرت نماذجها، والواقع العالمى المعاصر خير شاهد على ذلك.

ففى زماننا ـ ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين ـ «**فراعنة**» و«**قوارين**» و «**هامانات**» وما لا يحصى من «البطانات السيئة» التى تفسد كل صالح.

وفى زماننا!!! وفى زماننا!!!

وعليه فإن «المنهجية» التى أرساها القرآن لعملية «التغيير» كانت وستبقى صالحة لتحقيق نفس النتائج التى أحدثتها فى المجتمع الجاهلى قبل الإسلام.

ذلك لأن قوام المنهجية القرآنية هو مجموعة السُّنَن والقوانين والثوابت المحكمة التى لا تختل أبدًا نتائجها إذا حدثت مقدماتها. **ومابقى القرآن موجوداً فستبقى سننه وقوانينه فاعلة وحاكمة.**

* * *

وأما بعد :

فخلاصة ما انتهينا إليه فى هذه الدراسة هو:

أولا :

أن القرآن الكريم من خلال سننه وقوانينه وضع بين أيدينا معالم

وقسمات المجتمع الأمثل والأرشد الذى يجب أن نكون عليه وتكون عليه البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والذى أوضحنا قسماته فى الفصل الثانى من هذه الدراسة.

ثانيا :

حدد القرآن الكريم ـ من خلال سننه وقوانينه ـ الأسباب التى تؤدى إلى فساد المجتمع وإلى انهياره من خلال معالم ثابتة لاتخطئها العين، بحيث يكون فى وسع المصلحين أن يتعرفوا على أسس الأدواء والعلل وعلى طريقة علاجها كما سبق رصده فى الفصل الثالث من هذه الدراسة.

ثالثا :

حدد القرآن الكريم معالم الإصلاح ومقومات التغيير، وكيفية تهيئة المناخ للتغيير المنشود كما بيناه فيما سبق.

رابعا :

وأخيرا... رسم القرآن الكريم ـ بالوضوح الحاسم ـ السبيل الأمثل والأسلوب الأرشد والآمن والأبقى لإحداث تغيير لا شر فيه ولا ضرر من ورائه، ولايؤدى إلى معالجة داء بأدواء، وقوامه تغيير ما بالنفس كما سبق بيانه.

* * *

تُرى :

أيصح لنا القول بأن التغيير الذى نرجوه لأحوال أمتنا بات وشيك الوقوع ما دمنا قد حددنا معالم الطريق؟؟

لست أرى ذلك :

لأن الكلام شئ . . والواقع شئ آخر

ومن اليسير وضع النظريات والخطط . . ولكن لكى تجد الكلمات طريقها إلى الواقع فلا بد أن تتوفر لنا مثل عزائم أهل العزم . . وأنى لنا بهم؟!

لست متشائما أبدا . . . ولا يمكن أن أكون .

ذلك أن سنن المنهج القرآنى تفتح أمام عينى أوسع أبواب الأمل فى الإصلاح إن لم يكن بنا فبغيرنا، وإن لم يكن فى هذا الجيل فبأجيال جديدة، وإن لم يكن بأمة العرب فربما بأمم العجم.. لأن القرآن يقول:

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾(١).

فهل تطلع شمس الله من الغرب؟ حيث يحيل سبحانه الأعداء إلى أولياء؟ ربما . . وماذلك على الله بعزيز .

والله من وراء القصد وهو دائما حسبنا ونعم الوكيل

* * *

د. عبد الصبور مرزوق

---

(١) سورة محمد ، من الآية : ٣٨.